سيكولوجية الفقر والقهر
قراءة في رو اية أيام بغداد لخليل الجيزاوي

The title of the article is in English

أ.د - هاني إسماعيل محمد أبو رطيبة[1،*]، د. إيمان محمد محمد عمران[2]

[1]جامعة بني سويف ، (مصر)، hismaiel72@gmail.com)

[2]جامعة عين شمس ، (مصر)،e.omran@yahoo.com

تاريخ الإيداع: 2020/09/07 **تاريخ المراجعة**:2021/03/28 **تاريخ النشر**: 2021/06/30

ملخص:

تناقش الدراسة رواية أيام بغداد لخليل الجيزاوي، وترصد الدارسة أهم الملامح الفنية التي وظفتها الرواية في التعبير عن طبقة المهمشين، الباحثين عن رزقهم، من خلال الاغتراب في الوطن ذاته، أو الغربة خارج الأوطان، وتحمل المشاق والصعاب من أجل لقمة العيش، في واقع متغير قاس، في حقبة زمنية كانت تشهد تغيرات كبرى في التفكير والمنطق الاجتماعي، ووظفت الدراسة المنهج الاجتماعي مع تماس مع الماركسية الاقتصادية، موظفة المنهج التحليلي الوصفي في تطبيق النظرية الأدبية، وجاءت أهم النتائج لتكشف قدرة الرواية في رصد حياة الكادحين في مجتمعهم وواقعهم، وكيفية التغلب على هذا الواقع، وكشفت الدراسة ما تمتلكه الرواية من قدرة عن التعبير عن الواقع الاقتصادي للمجتمعات العربية في أزمنة التحولات

الكلمات المفتاحية: الغربة ؛ التهميش ؛ الفقر ؛ الاجتماعي، القهر

Abstract*; The study discusses the novel of the days of Baghdad by Khalil al-Jizawi, and the study monitors the most important artistic features that the novel employed in expressing the marginalized class, those looking for their livelihood, through alienation in the homeland itself, or alienation and enduring hardships and difficulties for a livelihood, in a harsh changing reality, and the study employed The social approach, in contact with economic Marxism, employed the analytical and descriptive method in applying literary theory, and the most important results came to reveal the novel's ability to monitor the lives of toilers in their society and their reality.*

key words*: Alienation ; Marginalization; Poverty; Social*

*المؤلف المراسل .

مقدمة:

تعبَّرُ رواية أيام بغداد(*) للكاتب خليل الجيزاوي عن طوائف المسحوقين المهمشين والبسطاء، الذين سعوا خلف أسباب العيش في بلاد بعيدة، توسموا فيها الخير والرزق، فراحوا يطرقون أبوابها هربًا من حالة العوز والفقر الذي يقتل أصحابه، في بلد كانت قديمًا ملاذ الفقراء والمهمشين والبسطاء، تحولت في نهاية القرن العشرين إلى وطن يسلك أبناءه طرق وعرة من أجل الحياة الكريمة.

إن الرواية تصف حياة هؤلاء في ظل عمليات التهميش والتجاهل لهم ولمعاناتهم، فتهتم الرواية بهم وتعيد نسخ واقعهم من خلال مجتمع النص الروائيّ.

يرصد الخطاب الروائي حياة شباب مصر الذين يغامرون بحياتهم من أجل الرزق، الذي يريدون به الخروج من دائرة التهميش والعوز، فينطلقون لاهثين خلفه، محملين بذكريات كثيرة تتداعى أمامهم وهم في رحلتهم أو مغامرتهم للخلاص من أزمة التهميش والعوز في وطنهم، يرتحلون إلى بلد غني بثرواته، بطموحاته التي أوقعته في شرك حرب ضروس، التهمت ثرواته وقبل ثورات طحنت أبناءه، وشبابه، فكشف الخطاب الروائي عن أزمة الشباب في الوطن العربي كله، ليس في مصر فحسب، بل العراق كذلك، فإن كان شباب مصر يعانون من ضائقتهم المادية وتهمشيهم، فإن شباب العراق يعانون من الحرب التي تخطف أرواحهم، وثرواته، وتحيلهم إلى مجرد ترس في محيط الزعامة التي يسعى إليه الحكام في أوطاننا.

هذه دراسة نقدية تسعى للكشف عن الأنساق الثقافية والفكرية التي تتبناها الرواية، وتُبشِّر بها، وفق نظرية المعرفة الثقافية/ الماركسيَّة، خاصة أنَّ الرواية قد اتَّخذت بعض ملامح الرؤية الماركسيَّة محورًا أساسيًا في بنائها الفكريّ والفنيّ، كما ركّزت في النسق الثقافي المنتج وفق ثقافة الحقبة التاريخية التي تحدث عنها الرواية.

إنَّ الرواية بمنطقها الفكريّ الذي تبنته تعد وثيقة معرفيَّة، وصفت حقبة مهمة في تاريخ مصر/ العراق تلك الحقبة التي أعقبت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل وما ترتب عليها من نتائج اقتصادية/ ثقافية/ اجتماعية وسياسية، أخرجت مصر مؤقتًا من زعامة الأمة العربية، وبعدها سعت عدة دول لتحتل مكانة مصر.

إن الخطاب الروائي قصد - من خلال السرد الروائيّ - نشر المعرفة الاقتصاديَّة السياسيَّة؛ لتبرزَ حقيقة التحول الأيديولوجي المهم الذي حدث في الوطن في الربع الأخير من القرن والعشرين، الذي خلق نوعًا من الصراع الطبقي لم يكن معهودًا منذ ثورة 1952م؛ لذلك سعت الدراسة إلى تحليل النص وفق الرؤية الثقافية الماركسية؛ لأنها الأقرب إلى توجُّه الرواية التي بالمهمَّشين والمسحوقين اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا.

إن رواية "أيام بغداد" بمنطقها ورؤيتها التي تتبناها تُعدُّ رواية اجتماعية مُهمةً، تناولت حياة المهمشين والمسحوقين الساعين إلى المغامرة من أجل حياة أفضل، وفي دراستها تأريخ وتأصيل للسياق التاريخي والاجتماعي الذي نشأت فيه؛ فهي رغم أنها كانت تتحدث عن الربع الأخير في القرن العشرين، لكنها كانت تتنبأ بما سيؤول إليه الحال في مطلع القرن الحادي والعشرين، فهي تهدف إلى التبشير بالمستقبل، في ظل التغييرات الكبرى داخليًا وخارجيًا، وآثار تلك التغييرات في بنية المجتمع.

تهدف الدراسة إلى الكشف عن دور المبدع المعاصر في مناقشة الواقع الاجتماعي والاقتصادي للوطن، وإسهامه في نقد تلك التغييرات ومعارضتها؛ بهدف الإصلاح والاستمرار في عمليات النهضة الحديثة، فالمبدع

صاحب التوجه الأيديولوجي يركز - من خلال إبداعه - على مناقشة بعض سلبيَّات الواقع؛ بهدف إصلاحها، ونشر المعرفة التي تتيحُ للقارئ التفاعل الإيجابيَّ في محيطه الثقافي والاجتماعي.

وقد اعتمدت الدراسة المنهج التحليليّ التاريخيّ، للوقوف على البنية الفكريَّة والثقافيَّة للنص الروائيّ، ومدى استجابته للواقع المجتمعي وتاريخه، لذا قُسِّمت الدراسة إلى عدة مباحث، كالتالي:

المبحث الأول: الاستهلال السردي

المبحث الثاني: الحضور الأسطوري

المبحث الثالث: الاستعلاء الرأسمالي " زمن التحولات "

المبحث الرابع: عنصرية الاغتراب

المبحث الخامس: ثقافة التخلف " الغريب الضائع "

المبحث السادس: ثقافة التسامح " الرحيل إلى التعصب "

المبحث السابع: ثقافة الاستبداد " العراق الحائر "

وجاءت الخاتمة لتبرز دور المبدع الأيديولوجي في نشر المعرفة، وإشراك المتلقي في خلق تفاعل إيجابي مع النص الروائي، والتغييرات الاجتماعية.

الاستهلال السردي

يلعبُ الاستهلال دورًا مُهمًا في القص الروائي، فهو يعد مقدمة مهمة تكشف عن رؤية النص، فالاستهلال يجذب انتباه القارئ أو السامع أو المشاهد وشده إلى الموضوع، فبضياع انتباهه تضيع الكلمة فالاستهلال فن البدايات في النص.(1) التي تسهم تكثيف دلالات النص الروائي، ويقف العنوان بوصفة عتبة من أهم عتبات النص الروائي، فهو يُضفي للنص دلالات جديدة، تُسهمُ في إنتاج التفاعل الإيجابي مع المتلقي من خلال مسايرة أفق التوقع أو كسره، فالعنوان يُعدُّ نصًا مُوازيًا يُكملُ فضاء ويجذب القارئ لقراءة النص، والتفاعل معه، وهذا ما قصده جيرار جينت في قراءة النص ضمن علاقاته بالنص الموازي، وكتب عنه كتابًا سنة 1987 م أسماه (Seuils) وترجم بالعتبات، وأسماه سعيد يقطين بالنص الموازي(2)؛ لذلك يقفُ عنوان الرواية "أيام بغداد" بوصفه نصًا مُوازيًا يدفعُ المتلقي للتفاعل الإيجابي مع النص، خاصة وأن كلمة "بغداد" لها في مخيلة المصريين ووجدانهم ذكريات إيجابية للغاية، فبغداد اشتقَّ منها المصريون كلمة "بغددة" للتعبير عن الغنى والثراء والراحة، والكلمة مشتقة من بغداد العاصمة العباسية التي كانت مركزًا حضاريًا عالميًا وقبلة للمسلمين وللعرب عامة، بوصفها حاضرة العلم والحضارة، وهي المركز في زمان مجدها، وبغداد الحالية هي الوطن للمصريين الذين ارتحلوا إليها في هجرة مؤقتة طلبًا للرزق، ولم تبخل عليهم هذه المدينة بخيرها، فالفلاح المصري في كل ربوع مصر يذكر بغداد والعراق بالخير، وأنها سبب رزقه وخيره، وعندما سقطت سقط معها حلم الكثيرين بوطن عربي قوي، يحمي الحمي ويسهم في استعادة الأرض المسلوبة.

عندما يُطالعُ المتلقي عنوان الرواية فسيتبارد به أكثر من دلالة، منها دلالة أيام بغداد وقت الثراء والعطاء والخير، والأرض التي ضمت ملايين المصريين، عاشوا وتعايشوا فيها، وعادوا منها برزق ساعدهم في حياتهم في مصر، وهناك متلق آخر يرتحلُ مع بغداد وقت الحصار وانكسار الحلم العربي، فيتوقعُ أن تتحدثَ الرواية عن

تلك الأيام العصبية التي مرت بها حاضرة الخلافة العباسية في زمن التجبر الأمريكي، الذي فرض حصارًا قضى على الأخضر واليابس فيها، ولن تكونَ هذه الدلالات وحدها التي يثيرها العنوان، فهناك من يظن أن الروايةَ تُحيلنا إلى الأيام السوداء التي عاشتها بغداد وعشناها معها وقت الغزو الأمريكي لها في مطلع الألفية الثانية، التي انتهت بسقوط العراق حتى الهيمنة الأمريكية/ الإيرانية، وقتل الرئيس العراقي صدام حسين، بعد ذلك.

وجاء العنوان في أسفل الغلاف؛ ليؤكدَ أننا نتحدثُ عن الماضي الذي كانت فيها بغداد قبلة للعرب في كل شيء، السلام، والحرب، والدفاع عن الأمجاد العربية ضد الأطماع الإيرانية، وكذلك ما رُسم في مخيلة عامة الشعوب العربية من أنا بغداد هي الحاضرة التي بإمكانها إيقاف المد الإمبريالي الأمريكي، لقد كان العنوان بوضعه أسفل الصفحة يُعبرُ عن الماضي وكذلك الانهيار وضياع الحلم البغدادي الذي كان يحلمُ به العرب خاصة في مصر.

وكتب العنوان باللون الأحمر للدلالة على ما بذلته بغداد من دماء منذ ثمانينيات القرن الماضي حتى يومنا هذا، فهي مدينة تكتسي بالدم، الدم البريء المراق إما رغبة في تأكيد زعامة الحاكم، أو بسبب الهجمة الاستعمارية الشرسة التي تعرضت لها العراق على يد الأمريكان.

ورسمت صورة فتاة جميلة تكتسي عينها بالحزن للدلالة على فقدان الأمل والطموح، وأن الجميلة/ بغداد قد وقعت في أسر الاستعمار والابتزاز، ونظرتها تؤكد أن الحزن لا يزال مُهيمنًا على القلوب والعقول.

لقد لعب النص الموازي المتمثل في عتبة العنوان والغلاف دورًا مُهمًا في إكساب النص الروائي دلالات كثيفة من خلال تضافر الغلاف بعنوانه مع المتن ليشركا القارئ في التفكير والتأمل، ويُنتجُ نصًا جديدًا يتواءمُ مع ثقافته وقراءته وتوجهاته الفكرية.

"فالغلاف أيقونة إعلامية، وكوَّة نصيَّة تُسلطُ الضوء على ما يموج بداخل المتن الروائي، فهو أول ما تقع عليه العين، وآخر ما يبقى في الذاكرة بعد انتهاء قراءة العمل الأدبي؛ لذلك يتحرى المبدع الدقة في اختيار الغلاف، جاعلًا منه عتبة الدخول إلى النص؛ لأن الغلاف تربطه علاقة مجازية بمضمون العمل الأدبي، والمتلقي إذا تمكَّن من فهم مكونات الغلاف وفك شفراته، استطاع الدخول إلى فضاء النص الروائي".([3])

الحضور الأسطوري

تقف الأساطير بوصفها مادة مهمة للتوظيف داخل النص الأدبي، فهي مادة غزيرة العطاء، محملة بكل الدلالات الإنسانية التي يمكن أن تعبر عن الذات الإنسانية الحالية، وتثري العمل الأدبي بمادة وفيرة، وكذلك يستطيع الأديب أن يتخفى خلفها للتعبير عمّا يريدُ دون خوف من السلطة التي ينتقدها، وقبل ذلك تتمثل عملية الثراء النصي لتكون هي الأهمية.

وظفت رواية أيام بغداد صورة الإله عشتار؛ لتعبرَ عن المسكوت عنه خلف النص، ولتثري النص بدلالات مفتوحة على كافة الرؤى والمستويات الفكرية، فعشتار هنا تعبر عن حالة الزخم الفكري والأيديولوجي داخل النص الأدبي، تعبر عن الصراع الإنساني الذي يواجهه المواطن العراقي والعربي بصفة عامة، بالرغم من أن التوظيف جاء ليرسم صورة متخلية لجريمة القتل التي وقعت، بسبب امرأة، قد يظن المتلقي أن الربط بينها والجريمة يقودنا لانتقاد المرأة/ الغاوية، التي هي وراء كل جريمة، منذ الجريمة الأولى في الكون، لكن الحقيقة أن الربط هنا للتعبير عن واقع سياسي مأزوم في العراق في الثمانينات من القرن الماضي.

"اعتدلَ الحاج عبد الرحمن في جلسته، أخذ نفسًا عميقًا ونظر من نافذة السيارة ثم قال: المرأة العراقية هي وريثة عشتار الجميلة، وعشتار هي إلهة الجنس والحب والجمال والتضحية في الحرب عند البابليين".(4)

ربط النص الروائي بين عشتار إلهة الجنس والمرأة العراقية، وربط بين الاثنين والتضحية في الحرب؛ ليؤكدَ أن هذا الربط يشير إلى وضع المرأة العراقية التي تعاني من ويلات الحرب العراقية الإيرانية، تعاني عبر تحمل مسئولية الأسرة، وتربية الأولاد ورعايتهم، وفي نفس الوقت تحرم من أنوثتها الغريزية التي تحتاجها، فهي ليس – كما يريد النص أن يخبرنا – بالشريرة أو الخاطئة كما يظن البعض، إنما هي نتاج طبيعي لحالة الحرب والغياب.

"عشتار تصُورُ على هيئة امرأة عارية، تركبُ وحوشًا، وهي إلهة الحرب والحب في بابل القديمة، وتجمعُ بين الجنس الإباحي والإجرام الدموي".(5)

إن العري هنا يعبر عن حالة الفوضى التي نتجت عن الحرب غير المفهومة الأسباب، عن الضحايا من الشعب العراقي، الذي يتعرى مع كل طلقة نار ضد العدو أو من العدو، والوحوش هم شباب هذا الوطن الذين فقدوا إنسانيتهم مع الحرب، مع الموت المحلق فوق الرؤوس، ورغم أنها إلهة الحب فإنها تحولت لصورة الإجرام الدموي، الذي يسعى مع كل لحظة إلى الارتواء الدموي، لقد فقدت عشتار جزءًا من إنسانيتها وتحولت من باحثة عن تموز كي يعود للحياة إلى قاتلة للحياة والشباب.

يبرز دقة النص الروائي في الربط بين المرأة التي تسببت في جريمة القتل، وهي المظلومة في الأساس، وبين الشاب المقتول الذي يمثل برمزيته الوطن العربي كله؛ فهو شاب مصري جاء للعمل، لقتل الفقر والعوز في وطنه، وبين الضابط الذي قتله، وكأن النص يريد أن يخبرنا أن الجميع مظلومون، فالضابط يعيش تحت ضغوط الحرب والدم المتناثر في كل مكان، وبين زوجته التي تحولت للمرأة ورجل في آن واحد، حاولت قتل غريزتها، لكنها تبقى إنسانة، والشاب الطامح في حياة كريمة، اضطر تحت العوز إلى إقامة تلك العلاقة الآثمة التي فقد حياته جراءها.

وما يؤكد أن الكل ضحايا الحرب والقمع الذي يعيشونه، هو ربط النص بين أسطورة عشتار وأسطور إبليس، الذي يسعى من خلالها لنزع السلام والرحمة من الإنسان.

"هل تعرف أسطورة إبليس الذي سرق السلام من الحياة؟!".(6)

كان السؤال هنا للتوضيح للشاب المصري، لتأكيد أن السلام فقدناه في حياتنا فانطلقنا نغدر ببعضنا، نحارب بعضنا، نقتل أنفسنا بما نفعل. إن القمع والخوف الذي سكن الأرواح غيرها للأسوأ، ومنها انتشر الدم في كل مكان.

"يا إبليس يا إله كل شر ويا عدو كل خير: فلنسرق السلامَ، فالإنسانُ يبحثُ عنه في كل مكان".(7)

يؤكد الخطاب الروائي أن كل ما يحدث في الواقع العراقي هو نتيجة غياب السلام، السلام الذي تمت سرقته، سرقه شيطان الطمع والجشع، سرقته السلطة التي تفكر في غير وجوده داخل سدة الحكم.

"فقالت: السلامُ بين الإنسانِ والله، هو الإيمان، والسلام بينه وبين نفسه هو السعادة، والسلام بينه وبين الآخرين، هو عمل الخير، والغاية والهدف المنشود، وأروع وأعظم قيمة؛ ولذلك سنسلبه كل هذه المتعة. (8)

اعتمد الخطاب الروائي على تكرار كلمة السلام؛ ليحدثَ مفارقة نفسية لدى القارئ فكلمة السلام تتكرر رغم افتقاد الراوي/ الحاج ومعه الشاب المصري، كل أنواع السلام، فرياح الوجع تحلق فوق الجميع، وقد تخطف أي روح منهم دون سابق إنذار. إنها روح الحرب الموجعة.

إن الخطاب الروائي يعتمد التأويل العميق لدفع القارئ لاكتشاف الواقع والمستقبل، الذي كان نتيجة الحرب، أو شهوة الحرب والحكم عند الإنسان.

"سيبحثُ عن السلام في كل مكان، في الشهرة والثروة والجنس الآخر؛ ولكنه لن يجده؛ لأنه في أعماق نفسه، فقرر إبليس إخفاء السلام، في أعماق النفس البشرية؛ ولهذا يجبُ أن يبدأ السلام أولا: بين الإنسان ونفسه، أن يتصالح الإنسان مع نفسه بالرضا والقناعة والعفو الدائم، إذا فكرنا في أن يعمَ السلام، وينتشرُ بين البشرية، فلنجرب بأنفسنا، حتى نتخلص من أسطورة إبليس". (9)

كانت أسطورة إبليس التي ربط الخطاب الروائي بينها وعشتار ترصد حالة العراق في زمانها، فالشهرة والثروة والجنس هي الثلاثية المهيمنة على المجتمع بأسره، وكذلك تسيطر على رأس السلطة التي سعت لتحقيق الشهرة والمجد فخاضت تلك الحرب التي زعزعت الاستقرار النفسي للشعب العراقي، ودفعته للعنف المبرر وغير المبرر جراء الرغبة في الهيمنة وفرض القوة على الآخرين. إن الأساطير تتيح للنص ثراء كبيرًا، متعدد الدلالات؛ لذلك يلجأ الخطاب إلى التناص مع الأساطير لمنح النص أبعاد جديدة.

الاستعلاء الرأسمالي " زمن التحولات "

تسعى الرأسمالية لتحقيق أكبر المكاسب على حساب الفقراء أو المحتاجين، غير عابئة بمصير هؤلاء البسطاء أو احتياجاتهم، فهي لا تعرف سوء النرجسية الاقتصادية التي تسعى لتوظيف الجميع لخدمة مصالحها الخاصة؛ حتى لو كان هذا على حساب الضمير الإنساني.

"تذكر كيف عمل في محل الكشري الشهير بميدان الجيزة، واضطر بعد شهر إلى ترك العمل؛ لأن صاحبَ العملِ ظلَ يُلحُ عليه أن يُكملَ الوردية الثانية؛ لغياب زميله المتكرر عن العمل، وتذكر أن رجليّه تورمتا من العمل طوال أكثر من 18 ساعةً بالعمل المتواصل، ومع ذلك لم يعطِهِ صاحب محل الكشري أجره مقابل الورديتين كاملا، رجع للسكن ونام مثل القتيل من التعب، وعندما اشتكى لزميل العمل باليوم التالي، فأخبره أن هذا هو السبب لغيابه المُتكرر حتى يعرف صاحب العمل قيمة العامل ويُعطيه حقه كاملا". (10)

يرصد الخطاب الروائي صورة محمد الطالب الذي يسعى لتوفير مصاريف الدارسة؛ لتخفيف العبء على أسرته، وكيف قامت الرأسمالية الصغيرة أو بمسمى آخر الرأسمالية الناشئة متمثلة في صاحب محل الكشري في استغلاله، وعدم منحه أجره كاملًا؛ لأنه يسعى لتوظيف هؤلاء البسطاء لخدمة رأسماليته، وكأن ليس من حقه الحياة، والربح، وهذا رأس المال "محل الكشري" لم يفعل هذا مع محمد فقط، بل يستغل كل المحتاجين البسطاء ويأكل حقوقهم؛ لتبرز – من خلال النص الروائي – التحول الأخلاقي الذي أصاب المجتمع المصري، نتيجة لهزيمة يونيو 67، وسياسة الانفتاح الاقتصادي غير المدروسة التي انتهجها السادات عام 1974م، فالنص الروائي يُحيلنا دون وعي مِنَّا إلى التاريخ المعاصر الذي أنتج كل تلك الحالات في مصر، التي بدت كمجموعة جزر منعزلة ومتحاربة، بسبب السياسات السياسية والعسكرية والاقتصادية غير المدروسة.

"نعم يتذكرُ هذا المشهد جيدًا، كأنه حصل معه بالأمس فقط؛ وهو محفور بتلافيف الذاكرة، لأن صاحب المقهى غافله، ومد يده في جيب المريلة، وأخذ مجموعة كبيرة من الماركات، ووضعها في صندوق الحصالة التي أمامه، وآخر الوردية، وبعد عمل استمر أكثر من 18 ساعة واقفًا على رجليه، وجد أن حساب القهوة ناقص ثلاثة جنيهات ونصف، وهو الذي حرصَ أن يكونَ دبورًا في العمل، ولم يستطعْ زبون واحد أن يقومَ دون أن يُحاسب على الطلبات".(11)

لم تقتصر محاولات الرأسمالية الناشئة استغلال البسطاء من العاملين معهم وعدم منحهم أجرهم كاملًا، بل عمدت إلى سرقتهم، وتحميلهم أموالًا يدفعونها لها، نتيجة محاولات السرقة لهم، فصاحب المقهى يسرق الشاب الفقير، ثم يطلب منه سداد ما سرقهم، الذي يفوق ما يتقاضاه الشاب، وكأن الشاب يعمل ليدفع لصاحب المقهى.

إنها صورة مصغرة لما يدور داخل مجتمع الثمانينيات في مصر، تلك الحقبة التي شهدت ذروة آثار الهزيمة والانفتاح الاقتصادي، وعلت الرأسمالية الجديدة، واستحوذت على المشهد؛ ليتغيرَ المجتمع المصري تدريجيًا وتعلو النعرة الطبقية من جديد، لكن أكثر قسوة وتجبرًا واستحواذًا، معها انعدام الأخلاق والانتهازية.

عنصرية الاغتراب:

"التفرقة بين الحرية والاغتراب – كما رأينا – كانت اللحن الرئيس في تطور ماركس الفلسفي والسياسي، وما رآه هيجل وفيورباخ في تاريخ (التفكير الإنساني)، رآه ماركس في تاريخ الإنتاج الإنساني والحياة الاجتماعية، لقد كان الاغتراب هو ما اكتشفه ماركس في وقائع الاقتصاد السياسي". (12)

كان الاغتراب حبيس الأنفس التي تنطق به في أفعالها، تحاول أن تستقوي على الاغتراب، لكنها تفتقد الأدوات التي تساعدها على ذلك، وبدت الروح كأنها انفصلت عن جسدها، وراحت تتنقل حيث الوجع البادي في كل بقعة تزورها، كانت النفس الموجوعة تستعيد أسطورة الخروج إلى الأرض الموعودة، موعودة بالوجع والانفصام، كان الخروج كخروج الطفل من رحم أمه صارخًا، وهو يستقبل أنين الحياة، كانت تلك هي الصورة التي بدا عليها الشاب النازح – وليس المسافر أو المهاجر – من روحه إلى الأرواح الغريبة.

"خرجوا يبحثون عن الرزق بعد أن ضاقت عليهم سُبل العيش الكريم في مصر المحروسة، خرجوا جميعًا كأنه يوم الخروج الكبير، تفحص الوجوه المُسافرة مُنزعجًا، وراح يسأل نفسه بمرارة هل ضاقت مصر بأولادها؟! أم تزوجت برجل آخر غير أبيهم، فطرد أولاد زوجته الأولى للخارج؛ ليواجهوا الموت البارد في بلاد الغربة والوجع، مُستغربًا ردد:

يا الله ... دى مصر كلها مسافرة للعمل في محافظات العراق". (13)

"إن أي مؤلف أدبي أو روائي لا يظهر من العدم بل تفرزه ظروف تاريخية - سوسيولوجية ملموسة؛ فلابد إذن لفهم هذا العمل من دراسة الحقبة التاريخية التي شكَّلت السياق التاريخي لإنتاجه بما هو نص وفهم العلاقات الاجتماعية التي عالجها والتي سادت في تلك الحقبة". (14)

يلجأ النص إلى الوصف الدقيق لبيان حالة المصريين في ثمانينيات القرن الماضي، حيث بدت الهجرة أو السفر للعمل مطلبًا شبابيًا مُهمًا لمواجهة سبل الحياة القاسية، بعد أن تحطمت الآمال داخل نفوس المصريين.

إن الخطاب بعمق كبير وهو يصف حال المصريين في نهاية القرن الماضي يحلينا ضمنيًا إلى سبب خروج المصريين، هذا الخروج الذي يشبه خروج بني إسرائيل من مصر، خروج كله وجع وألم، ناتج عن حالة اليأس التي أصابت الجميع، فالنص يربط بين خروج بني إسرائيل، وخروج المصريين من وطنهم، وبين الهزيمة القاسية التي لم تنمحِ من المخيلة الجمعية للمصريين، فهزيمة 67 م والحكم القمعي الذي مورس ضدهم في الحقبة الناصرية، كان هو السبب في هذا الخروج القاسي.

"هذه الطوابير المترنحة ذات الوجوهِ الصفراءِ المُتْعَبةِ، نداهةٌ جديدةٌ أطلقتْ صَفِيرُهَا، فلبَّتْ هذه الطوابيرُ النداءَ، وها هم يسافرون على أرجلهم المُتْعَبةِ، ومنهم من يموتون ميتةً رخيصة فيعودون على ظهورهم في صناديق الموت المغلقة؛ فقط ليدفنوا في ترابها المقدس، أي وطن هذا؟! وأية أرض مقدسة هذه؟!".(15)

يرسمُ الخطاب الروائي عبر السرد الفسيفسائي صورة المصريين المسافرين لخارج وطنهم، سعيًا وراء الرزق، بعد أن ضاقت بهم بلادهم، وهذه الصورة ترتبط بصورة العراق، فالخطر القائم في مصر هو الخطر القائم في العراق، فحالة العوز والفقر في مصر يقابلها حالة الخوف والقلق وفقدان الآمان التي تواجه العراقيين والمصريين المغتربين، بعد أن خضعت البلدين لنزوات حكامهما فأضاعوا في مصر حالة الاستقرار المادي والنفسي بعد خاضوا مغامرات حربية أسهمت بشكل كبير في فقر مصر والانتهاء بالهزيمة القاسية في عام 67م، ووقعت العراق فريسة لطموح حاكم يسعى للزعامة، وتبوأ مكانة عبد الناصر في مصر؛ فخاض حربًا ضد إيران، بهدف إثبات الذات وتأكيد الزعامة، فخسر الكثير من وراء تلك الحرب، التي زلزلت أركان العراق.

ويستشرفُ الخطاب واقع المصريين في العراق عندما أشار إلى عودتهم في توابيت مغلقة موتى، فقدوا حياتهم وهم يسعون للحياة، مقبلين عليها وكلهم أمل وطموح يفقدونه إلى الأبد في العراق.

"ومنهم من يموتون ميتةً رخيصة ،فيعودون على ظهورهم في صناديق الموت المغلقة".

فعماد صديقهم قد عاد بهذه الصورة بعد أن قتل بطريقة غادرة، وبعد أن تورط في علاقة آثمة مع امرأة عراقية، راح ضحية هذه العلاقة دون أن يحاسب القاتل، فالصورة الروائية تؤكد أن المصري في غربته رخيص لا قيمة له، وهكذا ينظر الجميع إلى الفقير.

"وقف حزينًا باكيًا يودعُ زميله، وهو يقرأ ما كُتِبَ على الصندوق الخشبي: الفقير إلى رحمة ربه: عماد الدين شهاب/ جمهورية مصر العربية/ محافظة.....

وقف باكيًا يُتابعُ صاحبه عماد، وهو يعودُ قسرًا لمصر المحروسة، راح يَسألُ عماد في نفسه: هل هذا آخر عهدي بك يا عماد؟ بالله ماذا فعلت بنفسك؟ وهل هذه نهاية تليقُ بك يا عماد؟ ما أصعب يومك الأخير في بغداد يا صاحبي؟! وما أصعب أيامك يا بغداد مع الغرباء؟!"(16)

كان هذا حال المصريين في غربتهم، قتل بدم بارد، ولا رادع لمن يعتدي عليهم، باتوا في فقر وهزيمة نفسية، دفعتهم للمغامرة بحياتهم سمعتهم، شرفهم، في سبيل الرزق، بعد أن لفظتهم مصر المهزومة حضاريًا؛ لذلك جاءت عبارات الخطاب لتؤكدَ الهزيمة والضياع: "هل هذه نهاية تليق بك"؟!، وما أصعب يومك الأخير في بغداد".

وجاء الوصف بكلمة الغرباء؛ لتشيرَ إلى الغربة النفسية والاغتراب داخل الوطن وخارجه يربطُ الخطاب الروائي بين طموحات نظام الحكم في مصر بعد يوليو وطموحاته وسعيه للزعامة التي أدت في النهاية إلى ضياع الكثير من الكرامة المصرية تحت وطأة الهزائم والاقتصاد المتدني، والنظام العراقي الذي يظن نفسه الوريث

الشرعي لنظام عبد الناصر في مصر ويسعى لتحقيق نفس الطموحات والسعي للزعامة، هذه الأمور التي أدت في النهاية إلى هدر الكرامة العراقية وسقوطه في فخ الهزيمة ثم الاحتلال.

ثقافة التخلف " الغريب الضائع "

لا أقصد بثقافة الغربة فقط ما يعيشه الإنسان الغريب من حالة نفسية غير مستقرة، تدفعه أحيانًا للانتهازية، إنما أقصدُ تلك الحالة النفسية المتبادلة بين الغريب وأهل البلد، فتجدُ أن كليهما يسعى لابتزاز الآخر، أصحاب البلد يجاهرون بهذا، والغرباء يحتالون في هذا الأمر خوفًا على أنفسهم، كانت هذه الثقافة قد استشرت عقب الأمراض الاستعمارية التي أصابت المجتمعات العربية، فبدا كل شعب ينظرُ للآخر نظرة دونية، يقللُ من شأن الآخر، ويرى القادم من دولة أخرى مجرد لص جاء؛ ليشاركه في مقدرات وطنه، ومن هنا جاءت ثقافة الغربة أو ثقافة ابتزاز الغرباء.

"ونزل السائق وفتح كبوت السيارة الأمامي، وجعل يعبثُ بالماتور مرةً، وببطارية السيارة مرةً أخرى، ولا يدري لماذا تأكدت شكوكه في هذا السائق الذي يتلاعبُ بالركاب؟"(17)

كان السائق الأردني/ الفلسطيني الأصل قد قرر أن يستغلَ الغرباء، ويستفيد منهم أكبر استفادة، من خلال الكذب، والمراوغة، فبعد أن تقاضي ثلثي الأجرة، قرر أن يتركهم في منتصف الطريق للحافلة الكبيرة، وكان هذا من نوع الاستغلال، استغلال ضعف هؤلاء في بلده، وحاجتهم وعوزهم للسفر من أجل توفير سبل الحياة، فقرر الاستعلاء عليهم بقوة وطنه، وظن أنه قادر على تحقيق مكسب سريع من ورائهم.

"بدأ السائقُ يتحدثُ مع يوسف وزملاء الرحلة، أن السيارةَ لن تستطيعَ تكملة الرحلة، وأنه اتفقَ مع سائق الباص أن يُكملوا الرحلة حتى عمّان، وانفجر هو في السائق: رحلة الباص إلى عمان فقط، وتم الاتفاق معك أنك بغداد مباشرة. فأجَابَ مُتلعثمًا: في محطة عمان ستجدون الباص، ومن نفس الشركة تركبونه إلى بغداد يا شباب. قال غاضبًا هذه المرة: هذا ضحك ونصب على الركاب، أجرة الباص 25 جنيهًا، وأجرة السيارة الخاصة 35 جنيهًا، عليك دفع عشرة جنيهات لكل راكب. مع الأسف وجد بعض الزملاء قد ركبوا الباص دون مساندته".(18)

قرأ سائق السيارة الأجرة ضعف هؤلاء الشباب، وحاجتهم للسفر بعد عناء الرحلة من مصر إلى الأردن، ولمس فيهم حداثة السن، وقلة الخبرة، فاستدرجهم ليتركهم على الطريق بعد أن يحصل منهم على أجرة بغداد، لكن فطنة "محمد" ساعدتهم في الحفاظ على أنفسهم ورد أموالهم، فهي رغم قلتها، لكنها تشكلُ مبلغًا كبيرًا يساعدهم في غربتهم.

"إن نمط إنتاج الحياة المادية يحددُ عملية الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بشكل عام، فليس وعي الناس هو الذي يحددُ وجودهم؛ بل على العكس من ذلك. إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم".(19)

حدث الموقف السابق في طريق الأردن لبغداد، وتكرر ثانية في العراق، فالكل يستغل الغريب ليحقق من ورائه أي مكسب مادي، دون مراعاة للحق والإنسانية، فكل هذا سقط تحت ثقافة الابتزاز التي هيمنت على الوجدان العربي المتخم بالهزائم المادية والنفسية؛ فراح يُمارسُ هزيمته النفسية على من هو أضعف منه، وبطبيعة الحال فالغريب هو الأضعف في هذه الأجواء.

"واقترب منه سائق حافلة، وهمس له: عندي حافلة تكريت، يُمكنني أطلع بكم سامراء بس آخد كروة/ أجرة تكريت، تجمع الزملاء حوله، فسأله: وأيه الفرق؟! فقال مُؤكدًا: كروة سامراء دينار ونصف، وكروة تكريت اتنين دينار، قالوا جَميعًا وفي نفسٍ واحدٍ: موافقين بسيطة، المهم ننزلُ قدام ساحة جامع سيدي على الهادي. قالَ السَائِقُ وهو يَضحكُ: حاضرين يا مصريين."(20)

تكرر ما حدث مع الغرباء من قبل في الأردن محاولات متكررة للنصب عليهم، واستغلالهم لتحقيق ربح سريع، فالنظرة الدونية متمكنة من أصحاب البلد، نظرة يغلفها الاستعلاء الساعي إلى تحقيق أكبر مكسب من ورائهم بوصفه قادمين لسرقة أموالهم من خلال عملهم في بلدهم، وهذه النظرة تؤكدُ سيطرة أخلاق القهر والتخلف على جميع البلدان العربية، التي لا تقيم وزنًا للجوانب الإنسانية بسبب تاريخهم الطويل من القهر والفقر والتخلف، الذي خلق بداخلهم صفات التماهي مع الظالم والمستبد والمستعمر، واكتساب نفس أخلاقه الاستعلائية أو القائمة على جني ثمار البلاد أو الأشخاص دون وجه حق.

"لا يجد الإنسان المقهور من مكانة له في علاقة التسلط العنفي هذه سوى الرضوخ والتبعية، سوى الوقوع في الدونية كقدر مفروض، ومن هنا شيوع تصرفات التزلف والاستزلام، والمبالغة في تعظيم السيد، اتقاء لشره أو طمعًا في رضاه. إنه يعيش في عالم بلا رحمة أو تكافؤ إذا أراد المجابهة أو فكر في التمرد، فسيأتي الرد عندها حاسمًا يقنعه بقمع أفكاره التمردية. إن عالم التخلف هو عالم التسلط واللاديمقراطية، يختل فيه التوازن بين السيد والإنسان المقهور، ويصل هذا الاختلال حدًا تتحول معه العلاقة إلى فقدان الإنسان لإنسانيته، وانعدام الاعتراف بها وبقيمتها، تنعدم علاقة التكافؤ لتقوم مكانها علاقة التشيؤ".(21)

ثقافة الجهل الديني " صعود التشدد "

في إشارات سريعة سعى الخطاب الروائي في التأكيد على بداية الأصولية الدينية المتشددة التي تحاول خلق رؤى تعيق تقدم المجتمع ونهضته، وتعود بنا إلى الوراء لقرون عديدة، عبر خلق طبقية دينية، وهي في حقيقتها بعيدة تمامًا عن الدين وتسامحهم ومساواته بين المسلمين جميعًا، فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، ورغم صراحة الخطاب القرآني والحديث النبوي؛ لكننا نجد من يحاول خلق مفاهيم جديدة، تخدم مصالحه هو، ويخلق منه صاحبة منزلة أعلى من غيره، لذلك جاء هذا الحوار الروائي؛ ليكشف عن الواقع الجديد الذي يغلف حقبة الثمانينيات في مصر.

"لكن ما آلمه أنه عندما انتهى من صلاة الظهر جماعةً بالصف الأول ذات يومٍ، ورجع للصفوف الخلفية؛ ليُصلي ركعتيّ سُنة الظهر، وشيئًا فشيئًا وصل إلى سمعه حوار ساخن وعالٍ بين رجلين كبار في السن، أحدهما يعترضُ على أن يقفَ عامل الطعمية للصلاة بالصف الأول، والرجل الثاني يُحاول إقناعه أن الناس تتساوى جميعًا بالصلاة، مثلما تتساوى عند دخول القبر؛ لكن الرجل الأول كان لا يزال غليظًا قاسيًا في قوله:

بس عامل الطعمية لا يصلي بالصفِ الأولِ!".(22)

لقد كشف المشهد الحواري السابق حجم الجهل والطبقية الفكرية التي بدأت تهيمن على الخطاب الديني في مصر الثمانينيات، هذا الخطاب الذي أراد الخطاب الروائي كشفه، وإظهار مخاطره التي قد تقود إلى عرقلة حركة المجتمع، فبرغم أن الخطاب الروائي صدر في الربع الأول من القرن الحادي والعشرين، لكنه يربطُ بين نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي؛ ليؤكدَ أن النزعة المتشددة والطبقية الدينية وكذلك الجهل، لهم

حضور خفي، قد يعاود الظهور مرة أخرى، ويضر بمصلحة الوطن. إن الخطاب الروائي هنا خطاب تنويري كاشف، يُسهمُ في خلق وعي جديد، برؤية دينية تسامحية تخدم الدين والوطن ولا تضرهما، وجاء وصفه الرجل المتحدث بالغلظة والقسوة للتأكيد على العنف الذي قد يترتبُ على اعتناق هذا الفكر الجاهل الذي يُؤسسُ لطبقية لا يعرفها الدين.

"طبعًا هو موقف مُتشدد من هذا الرجل، فالصلاة تجوز للعامل في مصنعه، وبلباس العمل ولا حرج في ذلك؛ لكن الصلاة تفضلُ بثيابٍ حسنةٍ نظيفةٍ، وهذا أمرٌ واجبٌ متى تيسر ذلك، وخلاصة القول يا ولدي: إنَّ الصلاةَ تَصحُ في لباسِ العملِ إنْ لمْ تستطعْ أنْ تجعلَ للصلاةِ ثوبًا نظيفًا، وورد أن الكثيرَ من الصحابةِ والتابعين كانوا يُخصصون ثوبًا نظيفًا للصلاة كالعباءة مثلا، أو الجلباب الأبيض .. والله أعلم".([23])

وفي المقابل يوجه الخطاب الروائي المتلقي لضرورة الاهتمام بالنفس، بالملبس الحسن أثناء الذهاب لملاقاة المولى عز وجل في بيته/ مسجده، فالله يُحبُّ أن يلقى عبده وعبده في صورة حسن، فالخالق يستحقُ أن نتطيبَ ونرتدي الملابس النظيفة ونحن نقابله، فبرغم مساواته للناس جميعًا؛ لكنه يأمرنا بأن نأخذَ زينتنا ونحن نرتادُ بيوته.

ثقافة التسامح " الرحيل إلى التعصب "

لم يكنْ المصري يعرفُ التعصب الأعمى لمذهب معين أو ضد مذهب أو دين معين، كان يحيا حياته بما تبقى له من بقايا الحضارة، والامتزاج مع الآخر، كانت هذه هي أهم ميزة يتميز بها المصريون، لم تكن العصبية قد استحدثت بعد، ولم تكن النزعات المتشددة قد غزت العقلية المصرية، فكانت الثمانينيات تُعَدُّ آخر حقب التسامح والتقارب مع الآخر في الشخصية المصرية، وهذا ما أوضحه الخطاب الروائي من خلال حياة الطالب محمد الذي رحل بحثًا عن الرزق ومساعدة أهله في تكاليف الدارسة، فمحمد وجد نفسه فجأة في بيئة تعج بالاختلافات المذهبية والعرقية، لكنه رغم هذا لم يتخل عن سماحته وشعوره بالراحة وهو يرتادُ مناطق الشيعة ومساجدها، وعتباتها المقدسة.

"وقف عدة دقائق مُتأملا حالة الراحة والسكينة التي ملأت صدره، ردد مُطمئنًا: الله، الله، ما أطيب الرائحة الطيبة العطرة يا آل بيت رسول الله، السلام عليك يا أبا الحسن، السلام عليك يا أبا الحسين، السلام عليك يا أمير المؤمنين، رفع يديه بالدعاء بالرحمة لأمه وأبيه وعامة المسلمين وختم قراءة الفاتحة، ومسح وجهه بيده، وهو يقول في نفسه: لولا هذه الحقيبة لطرت لك شوقًا يا إمام، لكن إن كتب الله لي العمل بجوارك، سأزورك كل يوم، بل كل صلاة".([24])

كانت هذه هي الروح التي سيطرت على محمد المصري الذي لا يعرف المذهبية ولا التعصب الأعمى، وجد نفسه مشدودًا بحكم ثقافته إلى آل البيت يقدسهم ويجلهم، ويتقرب منهم، ويقف في حضرتهم ويدعو لأهله لعل الله يستجيب الدعاء، ببركة آل البيت، ولم يكن عنده غضاضة في أن يصلي في مساجد الشيعة، هذه الثقافة المتأصلة في هذا الشاب، كانت آخر لمحات التسامح والتعايش قد أن تضربَ مصر والمنطقة بأسرها المذهبية والتعصب.

"السلام عليك يا حاجي، ترى الحديث النبوي الشريف يقصدُ بالحبة السوداء، حبة البركة، وليس حبة الباذنجان، نظر ناحيته وهو يُشيحُ له بيده: يا ولدى روح، روح، وَخِّرْ عني/ ابتعد عني، وغمغم بصوتٍ عالٍ وهو

يمسك بحبة الباذنجان: حبة سوداء، أهي كلها حبة سوداء، حبة الباذنجان حبة سوداء، صاح وهو يُمسكُ باذنجانة بيده ويرفعها عاليًا: الأسود، الأسود، الحبة السوداء شفاء من كل داء، هنا تدخل الشيف إسلام، وجذبه بقوة: تعال يا أستاذ تعال، ربنا يهديك ممكن تصير خناقة حالا، ويعملوها خناقة بين السُنة والشيعة، يلا يا أستاذ اصعدْ السيارة، خلاص اشتريت كل ما أحتاجه اليوم. وبالطريق للفندق قص الشيف إسلام الكثير من هذه المعارك الصغيرة التي تحولت إلى معارك حقيقية، وسال الكثير من الدماء بين أنصار مذهب أهل السنة، وأنصار مذهب أهل الشيعة ". (25)

تصرف محمد وفق ثقافته المصرية التي لا تعرف المذهبية الدينية، فراح ليصححَ للرجل الحديث النبوي، دون وعي منه أنه تحريف مقصود، بهدف خدمة رؤيتهم المذهبية؛ لذلك كان رد فعل الرجل حادًا؛ ولذلك تدخل الشيف إسلام ليجذبه ويبعده حتى لا تنقلب الأمور إلى فتنة طائفية مذهبية، كما هو معروف في أرض العراق، لقد أظهر النص الروائي الفارق بين المجتمعين المصري في حقبة الثمانينيات والعراقي، وأبرز روح التسامح الديني وعدم المذهبية في مصر، خلاف أرض العراق المتعددة المذاهب والعرقيات.

ثقافة الاستبداد " العراق الحائر "

أنتج النموذج الأبوي المتعالي فصائل بشرية متعالية على شروط الواقع والعقل والحق، وهذا أمر له أثره السلبي الخطير، بل إنه تحوَّل مع الزمن إلى نسق ثقافي صنع الذات الثقافية للأمة، وهذه الذات أضحى لها ما لا يجوز لغيرها؛ فهي فوق الشرع والقانون، والقاعدة هي مرجع لذاتها، مذ كانت الحجة لنفسها، يحتج لها ولا يحتج عليها، وباطلها حق، وإن رأت حق الآخرين باطلًا فلها ذاك".(26)

رغم أن النص الروائي لم يتوقفْ كثيرًا أمام صور الاستبداد في العراق أيام حكم صدام حسين؛ لكنه كذلك لم يخل من الإشارات التي تدل على حالات الاستبداد أو الاستعلاء الرئاسي، التي كانت تُمارسُ مع الشعب والبلاد سويًا، لم يتوقفْ الخطاب أمام صور الاستبداد، ربما لأن النص الروائي كان نصًا يؤصل لواقع الشباب المصري في حقبة الثمانينيات؛ لذلك لم يركزْ على الخطاب السياسي داخل العراق، وجاءت الإشارات إلى النظام السياسي تخدم الواقع الاجتماعي الذي سعى الخطاب الروائي للتأسيس له.

"وعرفوا أن الكرامةَ آخر نقطة على الحدودِ البريةِ بين الأردنِ والعراقِ، ويليها مُباشرة نقطة طريبيل، وهي أول نقطة للحدودِ العراقيةِ، وعندها طالعتهم صورة كبيرة للمهيب الركن صدام حسين بالزى العسكري، وقد كُتب تحتها: أهلا بكم بعراق صدام حسين". (27)

رصد الخطاب الروائي نوعًا من أنواع الاستبداد السياسي والاستعلاء من خلال تلك الصورة الكبيرة التي وضعت للرئيس صدام حسين عند الحدود؛ لتؤكدَ استبداد الرجل حيث اختزل العراق كلها في صورته، في اسمه، فكُكتب تحت الصورة أهلا بكم بعراق صدام حسين، لقد امتلك الرجل العراق أرضًا وشعبًا، وهذه العبارات تُحيلنا إلى زمن الإقطاع في أوروبا حيث كان الإقطاعي أو الأمير يمتلكُ الأرض بمن عليها. إن مثل هذه الأمور لا تحدث إلا في بلداننا العربية فقط، خاصة في أواخر القرن الماضي.

صارت الوطن، الجيش، الحياة تُنسب للقائد المستبد صدام حسين، فكل ما في الوطن يرتبط باسمه "وكانتْ صورةُ جنودَ قادسية صدام تتدفقُ كبيرةً في حلقِ الشاشةِ، والأغنيةُ لا تزالُ تترددُ مع الموسيقى العسكرية".(28)

أصبح الرئيس الوطن/ الرئيس الجيش هو صاحب القدسية الوحيدة في زمانه، الكل يقدسه ويجله، ويمنحه التحية التي تليق به، ولم يكن الكبار فقط من يفعلون ذلك، بل جرت محاولات لتنشئة الأطفال على هذه القدسية، حتى يكبروا بها، فيصير الحاكم/ صدام حسين في مرتبة أكبر من النقد أو الاعتراض عليها.

"وحكي محمد حكايته مع الصغار ولعب الكرة، وزجاج المحل الذي يتكسّرُ كل أسبوع تقريبًا، ابتسمَ الضَابطُ وضحكَ عَاليًا وهو يقولُ له: عندي الحل، بس ايش تعطيني مقابل إني أحل مشكلتك؟! ردَّ محمدُ سَريعًا: تحلقُ شعر رأسك عندي سنة كاملة مجانًا، ضحكَ الضابطُ العراقيُّ الكبيرُ وهو يقولُ: اشترى يا مصري صورةً كبيرةً للقائد المهيب الركن صدام حسين وألصقها على زجاجِ المحلِ، ضحكَ جبرُ وهو يقولُ: عصر اليوم التالي حضر الأولاد الصغار للعب الكرة، وعندما شاهدوا صورة الرئيس صدام حسين على زجاج المحل، وقفوا أمامها وأعطوا تعظيم سلام للصورة، وغادروا الميدان ولم يرجعوا مرة أخرى للعب كرة القدم".([29])

لقد قتلوا البراءة في نفوس الأطفال؛ زرعوا الخوف فيهم، الرعب صار أيقونة بداخلهم. إنهم يصنعون جيلًا من الجبناء، تربوا على الجبن، والقهر، ومن ثم ستترسخ بداخلهم كل منتجات القهر، تلك الصفات السلبية القائمة على الانتهازية، والنفاق، الكذب، القسوة، كانت هذه هي الصورة المثلى التي قصدها حاكم العراق في ثمانينيات القرن الماضي، صورة لمسخ إنساني يساعده في مزيد من الهيمنة عبر كل الأجيال.

الخاتمة

عالج هذا البحث الصراع الجدلي بين أيديولوجيات الأيدولوجيات الاجتماعية في العالم العربي، له من خلال مجتمع النص لرواية أيام بغداد للكاتب خليل الجيزاوي، التي تناولت حقبة زمنية مهمة، كانت فيها مصر في مرحلة تحول حقيقي خطير على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والنفسي لمواطنيها، وكذلك مرحلة مهمة في تاريخ العراق، تلك الدولة التي احتضنت أحلام المصريين البسطاء، وراحت تستغلهم لمصلحتها، وعرض هذا البحث للأمراض المجتمعية التي نتجت عن التحولات الكبرى في مصر والعراق، التحولات الاقتصادية والاجتماعية في مصر، والتحولات السياسية والعسكرية في العراق وكيف حاولت الرواية كشف تلك الأمراض وعلاجها عبر خطابات نفسية ثقافية مناهضة للقهر ومنتجاته ومن خلال هذه الرؤية استطاعت الدراسة أن تقفَ على النتائج التالية:

ـ تُعَدُّ رواية أيام بغداد من الروايات المُهمة التي تناولت حياة المصريين في العراق في حقبة التحولات والحروب، وعبرت بوصفها أشبه بالسيرة الذاتية عن المعاناة الإنسانية للمقهورين والمهمشين.

ـ أبرزت الدراسة دور رواية أيام بغداد للجيزاوي في مناقشة قضايا المجتمع المصري في الربع الأخير من القرن العشرين بكل تداعياته الاجتماعية والسياسية.

ـ كشفت الدراسة عن تبني الرواية للرؤى الفلسفية والنفسية في مناهضة القهر ونخبه وتوظيفها في التعبير عن حقبة الثمانينات في مصر والعراق.

ـ كشفت الدراسة عن سعي الخطاب الروائي لإنتاج رؤية جديدة أو أيديولوجيا جديدة عبر التواصل الإيجابي مع المتلقي لتغيير الواقع الظالم الذي هيمن على المجتمع المصري والعراق.

ـ كشفت الدراسة عن حالة الاغتراب النفسي والاجتماعي والسياسي التي تعيشها المجتمعات المقهورة.

المصادروالمراجع :

- سليمان النصيرالاستهلال فن البدايات في النص منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003 م
- نجود عطا الله الحوامدة: عتبات النص الروائي، عنونات رواية خلاصة النزف لأحمد العرود أنموذجًا، مجلة التربية والعلم، العراق،2021
- د. محمد مصطفى كلاب: عتبات النص في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي دراسة سيميولوجية سردية، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية - شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية - غزة – فلسطين، مج 25 ع 1 2017.
- خليل الجيزاوي: أيام بغداد، دار المعارف، مصر.
- أوجين كامنكا: الأسس الأخلاقية للماركسية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المركز القومي للترجمة 2011
- عمَّار بلحسن، ما قبل بعد الكتابة الأيديولوجيا / الأدب / الرواية: مجلة فصول مصر، مج5 ، ع4 ، 1985م.
- تيري إيجلتون: الماركسية والنقد الأدبي: تر: جابر عصفور، فصول، مج .
- عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005

هوامش وإحالات المقال

[1]) سليمان النصيرالاستهلال فن البدايات في النص منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003 م ص 22

[2]) نجود عطا الله الحوامدة: عتبات النص الروائي، عنونات رواية خلاصة النزف لأحمد العرود أنموذجًا، مجلة التربية والعلم، العراق، مج 19، ع 1، 2012 م : ص 334

[3]) د. محمد مصطفى كلاب: عتبات النص في رواية (ستائر العتمة) لوليد الهودلي دراسة سيميولوجية سردية، مجلة الجامعة الإسلامية للبحوث الإنسانية - شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية - غزة – فلسطين، مج 25 ع 1 2017: ص 6

[4]) خليل الجيزاوي: أيام بغداد، دار المعارف، مصر: ص 134

[5]) أيام بغداد : ص 135

[6]) أيام بغداد : ص 136

[7]) أيام بغداد : ص 137

[8]) أيام بغداد : ص 138

[9]) أيام بغداد : ص 139

[10]) أيام بغداد : ص 10

[11]) أيام بغداد : ص 14

[12]) أوجين كامنكا: الأسس الأخلاقية للماركسية، تر: مجاهد عبد المنعم مجاهد، المركز القومي للترجمة 2011: ص 194

[13]) أيام بغداد : ص 19

[14]) عمَّار بلحسن، ما قبل بعد الكتابة الأيديولوجيا / الأدب / الرواية: مجلة فصول مصر، مج5 ، ع4 ، 1985م، صـ170 - 171

[15]) أيام بغداد : ص 6

[16]) أيام بغداد: ص 128

[17]) أيام بغداد ص 38

[18]) أيام بغداد: ص 38: 39

[19]) تيري إيجلتون: الماركسية والنقد الأدبي: تر: جابر عصفور، فصول، مج 5، ع 3: ص 95

[20]) أيام بغداد: ص 50 : 51

[21]) د مصطفى حجازي التخلف الاجتماعي مدخل سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، ط9 ، 2005، صـ39

[22]) أيام بغداد : ص 24 : 25

[23]) أيام بغداد : ص 25 : 26

[24]) أيام بغداد: ص 84

[25]) أيام بغداد: ص 117

[26]) انظر عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط 3، 2005 ص 130

[27]) أيام بغداد: ص 45

[28]) أيام بغداد: ص 144

[29]) أيام بغداد : ص 65 : 66